المخاوف الإنسانية في رواية "نزوح مريم" لمحمود الحسن الجاسم

Humanitarian Concerns in Novel Maryam's Displacement by Maḥmūd Ḥasan al-Jāsim

Dr. Robina Naz
Faculty of Arabic, International Islamic University, Islamabad
Email: robina.naz@iiu.edu.pk

Abstract
Maḥmūd Ḥasan al-Jāsim is a Syrian writer and novelist who has written many novels. The novel reflects society that expresses its concerns and issues and is concerned with addressing its problems of all kinds. It is a means of expressing the reality of society with its pains and hopes and carries through its pages and chapters the characteristics and features of life. The Syrian crisis is the largest crisis in the world at the present time due to wars and internal conflicts and represents a unique blend of security and humanitarian concerns that are closely and comprehensively interconnected.

Maḥmūd Ḥasan al-Jāsim presented in his novel (Maryam's Displacement) a depiction of Syrian society and humanitarian issues, and a drawing of the events and problems of his society. He was affected by his keen observations as if he were a spokesman for the people who suffer from manifestations of injustice, corruption, poverty and deprivation. This study aims to shed light on the negative effects on families in war zones or those displaced by war after losing their homes and shelter in light of the story of *Maryam's Displacement*, following the descriptive approach, and refers to the humanitarian crisis and the security situation in Syria and the suffering of refugees who live in crowded camps where it is difficult to obtain sufficient food and water in addition to hospitals and schools, and they find themselves left in an unsafe environment. It also refers to addressing the serious and complex issues related to refugees.

This study includes an introduction, two chapters, and a conclusion. The first chapter deals with the author's biography, the origins of the Arabic novels, and its development. The second chapter presents a summary of the novel Maryam's displacement and addresses its themes and issues. The conclusion includes the important results that it has reached.

Keywords: Humanitarian conditions, security situation, Syrian Crisis, Maḥmūd Ḥasan al-Jāsim, The novel of Maryam's displacement

الملخص

الرواية مرآة المجتمع، تعبر عن همومه وقضاياه، وتهتم بمعالجة مشاكله بمختلف أنواعها، وهي وسيلة للتعبير عن واقع المجتمع بآلامه وآماله، وتحمل عبر صفحاتها وفصولها خصائص الحياة وسماتها. ومحمود حسن الجاسم كاتب وروائي سوري، كتب العديد من الروايات، وصوّر في أعماله الأزمة السورية التي تعدّ من أكبر الأزمات في العالم في الوقت المعاصر؛ بسبب الحروب والصراعات الداخلية، وتمثل مزيجا فريدا من الهواجس الأمنية والإنسانية المترابطة بشكل وثيق وشامل.

قدم محمود حسن خلال روايته (نزوح مريم) تصويراً للمجتمع السوري وقضاياه الإنسانية، ورسم الأحداث والمشكلات التي مرّ بها مجتمعه، وقد تأثر بمشاهداته الدقيقة كأنه ناطق باسم الناس الذين يعانون من مظاهر الظلم والفساد والفقر والحرمان.

تهدف هذه الدراسة إلى إلقاء الضوء على الآثار السيئة التي تطرأ على الأسر القاطنة في مناطق الحروب، أو التي نزحت بسبب الحرب بعد فقدانها للمسكن والمأوى، في ضوء رواية "نزوح مريم"، متبعةً المنهج الوصفي، تشير الدراسة إلى الأزمة الإنسانية والوضع الأمني في سوريا، ومعاناة اللاجئين الذين يعيشون في مخيمات مكتظة، يصعب فيها الحصول على ما يكفي من الطعام والمياه، بالإضافة إلى نقص المستشفيات والمدارس، ويجدون أنفسهم متروكين في بيئة غير آمنة. وكذلك تشير إلى معالجة المواضيع الخطيرة والمعقدة المرتبطة باللاجئين.

تشتمل هذه الدراسة على: مقدمة ومبحثين، وخاتمة، فالمبحث الأول: يتناول ترجمة المؤلف، ونشأة الرواية العربية وتطورها. والمبحث الثاني: يقدم ملخصاً لرواية "نزوح مريم"، ويعالج موضوعاتها وقضاياها. أما الخاتمة فتتضمن النتائج المهمة التي توصلت إليها.

الكلمات المفتاحية: الأوضاع الإنسانية، الوضع الأمني، الأزمة السورية، محمود حسن الجاسم، رواية "نزوح مريم".

المقدمة:

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، أما بعد:

إن الرواية من أهم الفنون الأدبية المعاصرة، ولها مكانة بارزة بين الأجناس الأدبية النثرية؛ لاحتوائها على تصوير حركة المجتمع، وتعبيرها عن الواقع الإنساني. فهي مظهر من مظاهر العلاقة بين الذات والعالم، وبين الحلم والواقع، وقد استحوذت على عقول القراء والكتّاب واستهوتْ قلوبهم، وتناولت موضوعاتها بشكل متكامل، تحتوي الرواية على عناصر التشويق والوصف والسرد والأحداث، وتعبر عن

انفعالات الفرد وتفاعلاته، وهي خطاب اجتماعي وسياسي وأيديولوجي، تستقي محاور موضوعاتها من الإنسان والطبيعة والتاريخ، فتصهرها ثم تعيدها إليهم على شكل رؤىً وبنىً جديدة.

والرواية تعدّد المشاكل وتسرد القضايا والحوادث والوقائع في المجتمع، وتشير إلى آثارها، وترسم طريق الخلاص منها. وهي جنس أدبي، نال مكانة كبرى في ميدان السرد والحكي، وهي أقرب فنون الأدب في رسم الواقع والمجتمع، كما يقول عبد الرحمن بو علي: "الرواية جنس أدبي تخيلي، أداته اللغة، وهدفه تصوير المجتمع بأفراده وجماعاته، وفي زمان ومكان محددين، قد يطول هذا الزمان أو يقتصر، وقد يتسعها المكان أو يضيق"[1].

يقدم الكاتب السوري محمود حسن الجاسم في روايته "نزوح مريم" رؤية جديدة للعالم، وتتخذ الرواية من البيئة السورية إطارا مكانيا لأحداثها وشخوصها، وتصور حركة المجتمع وتطوّره بالرؤية الواقعية، وتكشف عن أسباب الفوضى والقهر والارتباك التي تسود المجتمع، وتناقش القضايا الإنسانية والظروف السياسية والاجتماعية والنفسية التي يعيشها السوريون، وتصف حياة المجتمع السوري عبر الحديث عن همومه وأحلامه، وتعكس حالة القلق والذعر وتوجس المخاوف لدى أفراد المجتمع. ولا شك أن للحروب والنزاعات المسلحة والاضطرابات الداخلية تأثيراتها السلبية على الأوضاع الإنسانية، فهي تؤدي إلى إجبار السكان على النزوح، ومغادرة الأماكن التي تدور فيها الحرب؛ للنجاة بأرواحهم بحثا عن المأوى الآمن، والمأكل والملبس والمشرب.

المبحث الأول: نبذة عن سيرة الروائي محمود حسن الجاسم، وتطور الرواية العربية

أ) نبذة عن سيرة الكاتب:

اسمه ومولده:

هو محمود حسن الجاسم، كاتب وروائي، وأستاذ جامعي سوري. وُلد في عام 1966م في قرية أثرية جميلة، اسمها "رسم الخنادق"، تابعة لمحافظة حلب.

تعليمه:

حصل على التعليم الابتدائي من قريته، ثم انتقلت أسرته إلى شرق حلب، وفي عام 1984م تمكّن من تقديم الثالث الإعدادي بصفة متقدم حرّ من خارج المدارس، وفي عام 1986م عزم على أن يتقدم للاختبار للحصول على شهادة الثانوي الأدبي "البكالوريا" رغبة في الالتحاق بالجامعة، وبعد النجاح سجّل مباشرة في قسم اللغة العربية – جامعة حلب– العام الدراسي 1987–1988م في السنة الأولى، وتميز في النحو والصرف والمواد الأدبية، ليتفوّق ويتخرج ضمن الخمسة الأوائل، بترتيب الرابع

على الدفعة عام 1991م. وحصل على دبلوم الدراسات العليا اللغوية عام 1992م، وعلى الماجستير بعنوان: "التأويل النحوي حتى نهاية القرن الثالث الهجري" عام 1995م، وعلى الدكتوراه بعنوان: "تعدّد الأوجه في التحليل النحوي عند الزمخشري وأبي حيان وابن هشام" عام 1999م.

وظيفته:

درّس النحو والصرف في جامعة حلب، ثم سافر إلى المملكة العربية السعودية عام 2000-2001م، فدرّس علوم العربية من نحو وصرف وفقه لغة وبلاغة وعروض وتحرير كتابي ومهارات لغوية في كلية المعلمين بالباحة لمدة ست سنوات متواصلة، ثم عاد إلى جامعته جامعة حلب، ودرّس فيها منذ عام 2006م إلى 2012م مادّة النحو والصرف. تدرّج في الدرجات العلمية الجامعية، وأصبح بمرتبة أستاذ بجامعة حلب عام 2014م.

مناصبه:

تولّى منصب نائب عميد كلية الآداب والعلوم الإنسانية للشؤون العلمية بجامعة حلب، ورئيس قسم اللغة العربية بجامعة الباحة بالمملكة العربية السعودية سابقًا.

مؤلفاته:

له عشرات البحوث العلمية المحكَّمة، والعديد من المؤلفات العلمية، من أهمها:

- القاعدة النحوية تحليل ونقد، دار الفكر سوريا، 2007م.
- تعدّد الأوجه في التحليل النحوي، دار النمير سوريا، 2007م.
- تأويل النص القرآني وقضايا النحو، دار كنوز الأردن، 2014م.
- البعد الجمالي في التحليل النحوي عند المفسرين، حوليات الآداب والعلوم الاجتماعية – جامعة الكويت، 2014م.
- الجواز في الفكر النحوي، حوليات الآداب والعلوم الاجتماعية – جامعة الكويت، 2016م.

رواياته:

1. "غفرانك يا أمي" الدار العربية للعلوم ناشرون، 2014م.
2. "نزوح مريم" دار التنوير لبنان مصر تونس، 2015م.
3. "لاجئة بين زوجين" دار الآداب للنشر والتوزيع، 2015م.
4. "نظرات لا تعرف الحياء" الدار العربية للعلوم ناشرون لبنان، 2016م[2].
5. "رائحة التفاح"، دار التنوير للطباعة والنشر – بيروت، 2022م.

ب) الرواية العربية ونشأتها:

الرواية لغة:

جاء في المعجم الوسيط حول معنى الرواية: "روى على البعير ريا: استقى، والقوم وعليهم ولهم: استقى لهم الماء، والبعير، شدّ عليه بالرِّواء: أي شدّ عليه لئلا يسقط من ظهر البعير عند غلبة النوم، والبعير الماءَ، وراويةً: حمله ونقله. وروى الحديث أو الشعر رواية: حمله ونقله، ويقال: روى عليه الكذب؛ أي كذب عليه، وروى الزرع: أي سقاه، والراوي: راوي الحديث أو الشعر: حامله وناقله، والرواية: القصة الطويلة"[3]. فيظهر أن الرواية تأتي بمعنى نقل الحديث.

وقد عرّفها ابن منظور في "لسان العرب" بأنها: "مشتقة من الفعل روى، قال ابن السكيت: يقال رويت القوم أرويهم، إذا استقيت لهم، ويقال: من أين رؤيتكم؟ أي: أين ترون الماء؟، ويقال: روى فلان فلانا شعرا، وإذا رواه له حتى حفظه للرواية عنه، وقال الجوهري: أرويت.... والشعر فأنا راو في الماء والشعر، ورويته أي: حملته على روايته"[4]. ومما جاء في معنى الرواية لغةً أن: "الأصل في مادة راوي في اللغة العربية هو: جريان الماء، أو وجوده بغزارة، أو نقله من حال إلى حال أخرى"[5]. أي الرواية: نقل الماء، أو نقل النص على الناقل نفسه.

ومن خلال هذه التعريفات اللغوية للرواية نجد أنها تتضمن مدلولين اثنين؛ الأول يحيل على وجود الماء وكيفية نقله، والثاني يحيل على رواية الشعر والحديث وحمله.

اصطلاحاً:

الرواية: جنس أدبي نثري، يقوم بسرد أحداث بشكل متسلسل الأفكار، مع العقدة والحبكة بالإضافة إلى عنصر الزمان والمكان، فالرواية هي: "سرد قصصي نثري طويل، يصور شخصيات فردية من خلال سلسلة من الأحداث والأفعال والمشاهد، والرواية شكل أدبي جديد لم تعرفه العصور الكلاسيكية والوسطى"[6]. هذا التعريف يشير إلى شكلها الهيكلي والعناصر التي تقوم عليها، أما من حيث المعنى فهي: "عالم شديد التعقيد، متناهي التركيب، متداخل الأصول، إنها جنس أدبي منثور"[7].

وعرفتها عزيزة مريدن حيث تقول: "هي أوسع من القصة في أحداثها وشخصياتها، عدا أنها تشغل حيزا أكبر، وزمناً أطول. وتتعدد مضامينها، كما هي في القصة، فيكون منها: الروايات العاطفية، والفلسفية، والنفسية، والاجتماعية، والتاريخية"[8].

والتعريف الآخر يقول: "هي رواية كلية وشاملة، موضوعية أو ذاتية، تستعير معمارها من بنية المجتمع، وتفسح مكان التعايش فيه لأنواع الأساليب، كما يتضمن المجتمع الجماعات والطبقات المتعارضة"[9].

وعرفها أحمد أبو السعد بأنها: "مجموعة حوادث مختلفة التأثير، تمثلها عدة شخصيات على مسرح الحياة الواسع، شاغلة وقتا طويلا من الزمن، ويعتبرها بعض الباحثين الصورة الأدبية النثرية التي تطورت عن الملحمة القديمة"[10].

يتبين لنا من هذه التعريفات بأن الرواية: نوع من أنواع السرد، أو هي فن نثري يتناول مجموعة من الأحداث التي تنمو وتتطور، أو تقوم بها شخصيات متعددة في مكان وزمان، حيث يكون المكان أوسع من مكان القصة، والزمان أطول من زمانها، ومن ميزاتها: أنها أوسع من كل الأنواع الأدبية الأخرى. ومن خلال التعريفات نجد أن الرواية تتميز بما يلي:

1. الكلية والشمولية، سواء في تناول الموضوعات، أو من ناحية الشكلية.
2. قد تكون الرواية معبرة عن الفرد أو الجماعة، أو عن الظواهر.
3. ترتبط الرواية بالمجتمع، وتقيم معمارها على أساسه.

نشأة الرواية العربية:

إن المجتمع العربي عرف – من خلال حملة نابليون بونابرت على مصر – تطوراً وازدهاراً في مختلف الأصعدة الاجتماعية، والفكرية، والسياسية، كما عرف انفتاحا كبيرا على بعض أنواع الأدب، كالمسرح والقصة والرواية.

يعتقد بعض النقاد العرب بكون الرواية العربية قديمة النشأة والجذور، مدللين على حكمهم هذا بما ورد في القرآن الكريم من قصص، بالإضافة إلى القصص الواردة في "ألف ليلة وليلة" و"كليلة ودمنة"، والسير الشعبية، وغير ذلك، لكنها لا تتوفر على العناصر كما ظهرت في الغرب. لذا يقال: إن الرواية جنس فني أوروبي، انتقل إلى العرب بفعل تأثير عوامل المثاقفة، كالترجمة والصحافة وغيرها"[11]. مما يعني أن الرواية العربية جاءت بعد الاحتكاك الثقافي الأوروبي، وذلك من خلال تأثير عوامل المثاقفة، ويرون أن كتاب الطهطاوي: "تخليص الإبريز في تلخيص باريز" مطلع الفن القصصي في الأدب العربي الحديث، ويذكرون بعد ذلك المويلحي، وجرجي زيدان، ومحمد حسين هيكل. وقد عدت الرواية فتحا في الأدب المصري، بل عدت رواية واقعية في الأدب العربي الحديث"[12].

"والواقع أننا نستطيع أن نقسم دراسة الرواية العربية إلى عدة مراحل، فهي تبدأ أولا بمرحلة كتب الأخبار التي ظهرت في العصر الأموي، واستمرت إلى العصر العباسي. وتأتي بعد هذا مرحلة التأليف المعاصر في أواخر العصر الأموي وأوائل العصر العباسي، في مثل: "كليلة ودمنة" وسيرة ابن إسحاق، ثمّ يظهر القصص الشعبي المجمع، في أمثال: كتاب "ألف ليلة وليلة"، ونلمح آخر الأمر صورة من الرواية العربية في سيرة عنترة، وذات الهمة، والظاهر بيبرس، وسيف بن ذي يزن، وحمزة البهلوان"[13].

الرواية العربية في نهاية القرن العشرين:

ظهر عدد كبير من أبرز الروائيين العرب، أمثال: الطيب صالح، عبد الرحمن منيف، جبرا إبراهيم جبرا، غالب هلسا، غائب طعمة فرمان، هاني الراهب، محمد زفزاف، محمد شكري، الطاهر وطار، وآخرون. ولكن في المقابل ظهرت أسماء جديدة قدمت إضافات جمالية وإبداعية للفن الروائي، مثل: منتصر القفاش، محمود الورداني، علاء الأسواني، يوسف زيدان، وغيرهم كثير. وتكمن ميزة المرحلة في كون هذا الفن لم يبق حبيس بلدان بعينها كمصر فقط، بل ظهرت أسماء وازنة ومهمة في أغلب الأقطار العربية، بما فيها: المغرب والجزائر وليبيا وتونس ودول الخليج والأردن وباقي الأقطار العربية"[14].

المبحث الثاني: دراسة موضوعية لرواية "نزوح مريم"

أ – ملخص الرواية:

رواية "نزوح مريم" لمحمود حسن الجاسم، رواية بليغة في نقلها لتجربة الموت عند السوريين، نالت الرواية تقدير النقاد والمتخصصين في دراسة السرد العربي، من خلال اختيارها ضمن القائمة الطويلة لجائزة "البوكر"؛ لجودتها الفنية، ولبنائها المحكم، وجاذبيتها السردية والجمالية.

تقوم البنية العامة لرواية "نزوح مريم" على حكاية "سارة طوني جبور"، المرأة السورية المسيحية، زوجة هاشم سعيد الحسين، السوري المسلم، وابنتهما الطفلة "مريم"، وتسرد القصة حياة هذه الأسرة التي تصطدم بحرب قاتلة وظالمة، وتجري أحداث هذه القصة في أمكنة مختلفة من سوريا.

تشتمل رواية "نزوح مريم" على أربعة فصول، الفصل الأول: "عمود الخيزران"، والفصل الثاني: "أيام المولَيَّة"، والفصل الثالث: "كتف العاصي"، والفصل الرابع: "أسماك القرش".

يبدأ الفصل الأول بمشهد من مدينة الرقّة، بذكر الخوف الذي يراقب الرقّة في هذه الأيام، وبذكر انهمار الأمطار والسنة الخصبة، وكذلك يشير إلى الخوف الذي أخذ ينمو ويتسرب بدهاء وخفاء في قلوب الناس، والتظاهرات التي تسيل مثل حمم بركانية في معظم المدن والبلدان، وتتزايد يوما بعد يوم، حتى انتشرت في الهواء كالطاعون، تفور وتتغذى بالدماء والبارود. وينغلق الفصل على صورة حزينة، حين أصيبت أسرة سارة بالمأساة، واعتقل زوجها هاشم.

ويبدأ الفصل الثاني بغياب هاشم، ويسرد السارد فيه معاناة أسرة هاشم خاصة، ومعاناة أهل الرقّة عامة، كان غياب هاشم قاسيا، ترك جروحا عميقة على أسرته، حتى ماتت أمه كمداً على فراقه، وأصيبت ابنته مريم بمرض نفسي.

والفصل الثالث يبدأ برحلة سارة زوجة هاشم، ومغادرتها الرقّة، فتبدأ رحلة الآلام لها من جديد. والفصل الرابع يشير إلى زيادة آلامها حين تتزايد الرغبة في الهجرة فرارا من الخوف والحزن الذي سيطر عليها، ولعلاج ابنتها المريضة رغم ما يخبئ لها القدر من أحزان.

وتنتهي الرواية بنهاية الفصل الرابع بمشهدين:

الأول– متعلق بموت سارة في مخيم اللاجئين، حين تعود الحمى إلى جسدها وتزداد، فتنادي العمّة خديجة التي تعيش معها في خيمة اللاجئين، وتقول لها: "يا عمّتي، هذه المفاتيح لبيتنا في سوريا، إنها أمانة معك. أمانة إن أصابني شيء فهي لمريم، وفي هذين الدفترين كل ما تحتاج مريم لمعرفته"[15].

أما المشهد الثاني فيتعلق بالهامش، كتبت فاطمة ابنة خديجة، بعد عشرة أيام، وأشارت إلى عودة هاشم وموت سارة، فتقول: ثم بعد أسبوع جاءنا رجل، وما أن شاهدته مريم حتى أخذها بكاء وضحك، ركضت نحوه، ارتمت عليه، تتمسح به، تبكي وتضحك وتقفز. تنظر فيه وترتمي عليه من جديد بدهشة أبكتنا. قال الرجل – وهو يضم الصغيرة – متأثرا: أنا هاشم سعيد الحسين، والد مريم، ونقل إلينا خبر وفاة سارة، كان منهمكا شديد التأثر، وهو يحتضن مريم بجسده وروحه"[16].

وهكذا تكتمل الرواية باللقاء بين الطفلة "مريم" وأبيها هاشم سعيد الحسين، وموت "سارة" الساردة، وابنة بلدة "محردة" المسيحية.

يشير الراوي إلى حالة من الفوضى والتشتّت والتّيه، ومن الكآبة والاكتئاب والحزن، ومشاكل التهجير، وذلّ النزوح، وتطور الوضع السيئ في سوريا. فهو ينقل التجربة المريرة لأسرةٍ سوريةٍ (الأب مسلم والأم مسيحية) تعيش حالة الانهيار الكبير.

يقول الناشر: يجدر بنا أن نعتبر رواية "نزوح مريم" بمثابة الكلمة التي ألقيت في بحر عميق، كلمة أراد بها صاحبها أن يقول للعالم: كم أنت قميء وهجين وتافه وكاسر وظالم، وجاهل، وغبي، ولا عقلاني، وأن ينقل إلى هذا العالم الأعمى، والأصم، والأبعد ما يكون عن التحضر والإنسانية، قطعة الجحيم الشديدة السواد والقساوة، هذا الجحيم الموجود على الأرض والذي يعيش في أتونه، كل يوم وحين، سوريون وسوريات، أتعبهُمُ القمع، وأذلّتْهم المنافي، وباعدت بينهم وبين بلادهم الصحاري، وأغرقتهم البحار. فكلماته الموجزة والمتفجرة علامات فاقعة الدلالة على ما في الرواية من أحداث وشخوص وأمكنة وأزمنة ومفاجآت، تعيش مأساتها لوحدها، في غيبة تامة عن عيون العالم المغمضمة. ومن خلال الرواية يظهر أن اسم (مريم) ذو حمولة دلالية ورمزية، لا يحضُر فعلُها في الأحداث، ولا يتعرض السرد لها، لكنها تظلّل كل تلك الأحداث التي نقلتها بمرارة "سارة"، وهذا السرد المتواشج، بأشد وأقوى

وأعمق الظلال، وكأن "مريم" الحاضرة بغيابها، والفاعلة بظلالها، والعميقة برمزيتها؛ هي البطلة في الرواية. أليست هي من كانت وراءها؟.

ب – موضوعات الرواية:

اشتملت الرواية على العديد من الموضوعات التي تشير إلى معاناة المجتمع والقضايا الإنسانية وأثر الصراعات على الناس، فمنها:

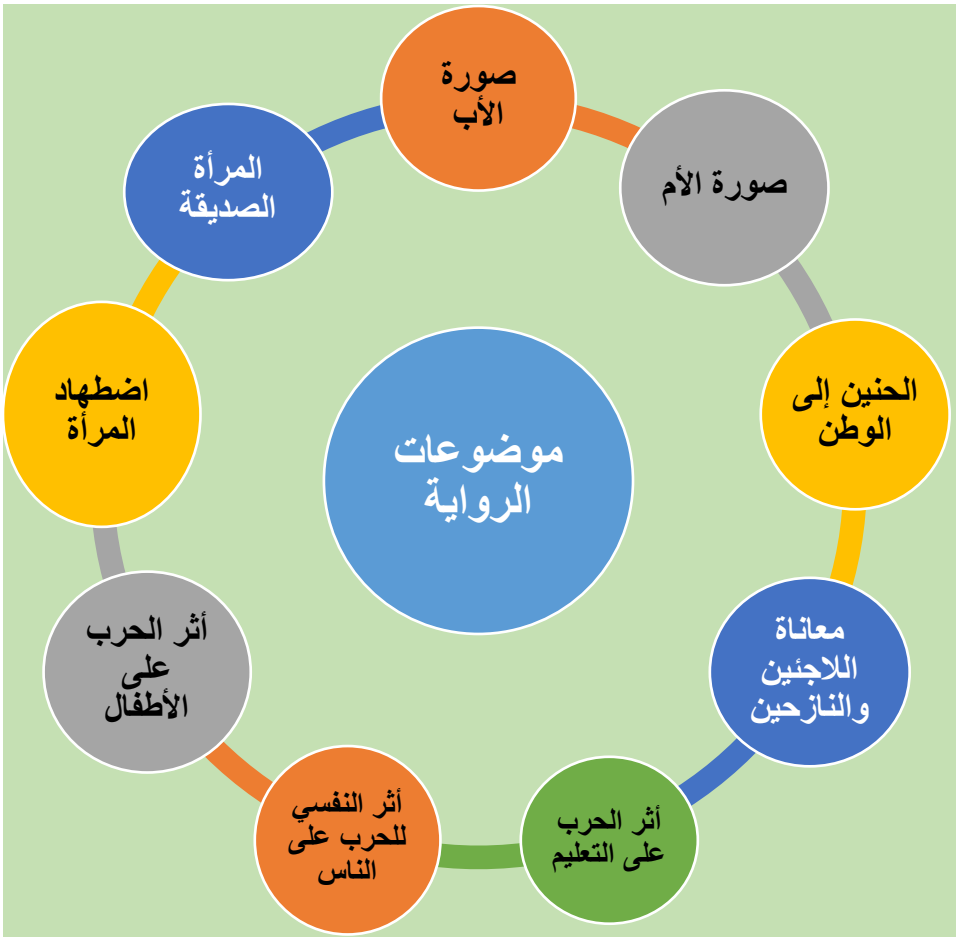

1- **صورة الأم:**

الأم هي نبع الحنان والعطف والأمان لكل من حولها، ولها مكانة عظيمة، ولقد كرمها الإسلام فجعل الجنة تحت أقدامها، ففي الحديث أنَّ جاهِمةَ جاءَ إلى النَّبيِّ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّمَ، فقالَ: يا رسولَ

اللَّهِ، أردتُ أن أغزوَ، وقد جئتُ أستشيرُكَ؟ فقالَ: «هل لَكَ مِن أمٍّ»؟ قالَ: نعَم، قالَ: «فالزَمها؛ فإنَّ الجنَّةَ تحتَ رِجلَيها».[17] وهي تستحق – لحسن الصحبة والبر والإحسان – أكثر من غيرها، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال:

يا رسول الله، مَنْ أحقُّ الناس بِحُسن صَحَابَتِي؟ قال: «أمك». قال: ثم مَنْ؟ قال: «أمك». قال: ثم مَنْ؟ قال: «أمك». قال: ثم مَنْ؟ قال:« أبوك».[18]

والأم تهتم بأولادها، وتراقبهم، وتخطط لهم حياتهم من شتى الجوانب، فهي صانعة الأجيال، وهي الملجأ عند الخوف والمشاكل والهموم ووقت الشدة، وقد غرس الله في قلب الأم حب أبنائها، والخوف عليهم من التعرض لأي أخطار تواجههم. جاء في القرآن الحكيم قوله تعالى: (وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارِغًا إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَن رَّبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ)[19].

تشير هذه الرواية (نزوح مريم) إلى حزن الأم على أولادها، التي واجهت الصراعات المسلحة في سوريا، فابنها بشير كان يعمل في مركز أمني، جاء إلى بيته ذات ليلة بوجه مهزوم بائس، وفي نظراته تجليات عجيبة، مزيجة من الهزيمة والألم والعنف والاضطراب والقسوة، وكأن حقيقة قاسية محبوسة في ضميره، وأخذ محفظة دبلوماسية، وأخبر أمه عن ذهابه إلى الخارج، ولا يعرف متى يعود. خرج من بيته وهو يجر محفظة كأنه لا يريد أن يسمع تعليقاً وتضرعاً من أمه أو أخيه، رسم الروائي حزن الأم في تلك اللحظة قائلاً: "تلفّتت عمتي خديجة مثل مظلومة دبّرت لها تهمة كبيرة، تبحث عن نجدة"[20].

كان غياب هاشم (ابنها) قاسياً جداً، وترك جروحاً عميقةً على الأم، فانطفأ النور من عينيها، وزاد من وجعها اختفاء بشير، حتى كانت تتمنى لو أنها فقدت الحياة فعلاً، تبكي بصمت، وأحياناً بصوت مسموع له أنين. وعندما تسمع تراشق نيران من كل الجهات، تضع يديها أمام وجهها، تبكي وتقول: "لو نعرف مصير هاشم. لو نعرف أين اختفى بشير. حتى إيناس انقطعت أخبارها"[21]. رسم الكاتب صورة ألم الأم وحسرتها وخوفها على فقدان أولادها الذين ربتهم وحدها، وعندما كبروا فقدتهم.

غياب هاشم أثّر على أمه، فصارت تشمّ لباسه، وتشهق وتبكي، أحيانا تبدأ بنشيج، ثم يتحوّل إلى نواح وعويل، وأحيانا تستخرج صورا وملابس لأولادها وتغمغم، يقول الكاتب على لسان سارة: "صارت عمتي خديجة لا تفكّر إلا في الأشياء الحزينة، كأن لم يكن بداخلها ما يكفيها من الحزن. تمشي في البيت أحيانا، أو تجلس على الأرض، وبين يديها ثياب أولادها، تشمّها، وتقلّبها. تنثرها أماها، وتنفلت دموعها المحبوسة... ثم تكرّر: هاشم، هاشم، يا بعد أمك. بشير طوّلت يا ابني"[22]. تعبت أم هاشم من هذا الوضع المليء بالآلام والظروف الصعبة، وظل واقع الرقّة ينخر في قلبها وعقلها، حتى

سلبها مداركها، وتنظر إلى كل شيء بنظرة بطيئة فارغة خالية من المعنى، تخرج غير واعية، وفي الشارع تندب وتنوح، وتلهج بأسماء أولادها دائما، وتكرر: هاشم، هاشم، هاشم.

"أريد نورية، وانتبهي هنا في هذا الجدار وراء خشب الباب خزنة صغيرة، هذا مفتاحها، فيها الذهب. هذا الذهب لأولادي. وإذا ما رجعوا فهو لك ولمريم"[23]. عندما تعبت أم هاشم وأخذتها حمّى شديدة، أخذت تفكر في أولادها، وطلبت زوجة ابنها، وسلّمت إليها مفتاح الخزانة، فيها الذهب والمال لأولادها، وهذا المقطع يشير إلى اهتمام الأم بأولادها، حتى في أصعب الأحوال.

أصابت سارة مصيبة في الطريق، يؤلمها صدرها وبطنها وخاصرتها، ولا تستطيع النهوض، وتشعر بوهنٍ أشبه بالغيبوبة المتواصلة، وفي ذلك الوقت تفكر في ابنتها: "كأنّ الصراخ لم يتخطَّ رأسي. أسقط وفي رأسي طنينٌ وأصواتٌ. لم أكن غائبةً عن الوعي، بل كانت كل نبضة حياةٍ فيّ مشغولة بك"[24]. في الطريق من أزمير إلى اليونان هاجمتهم مافيا ألمانية، وانقضّت عليهم مثل الوحوش، يضربونهم ويفتشونهم، حتى أصبحت الأم غائبة عن الدنيا وفقدت وعيها، وعندما استفاقت من إغماءتها شعرت أن وجهها متورم، وفمها جافّ، ولا تستطيع الكلام، لكنها كانت تفكر في ابنتها قائلة: "حين صحوت – يا مريم – كانت بطني تؤلمني، ويدي متورمّة، وصدري يؤلمني بشدّة، أشعر بالبرد يجتاحني، ويخلخل عظامي، أحاول بكل طاقتي أن أستعيد وعيي. أسأل: أين مريم؟"[25]. فهذا المقطع يشير إلى قلق الأم وشعورها بالخوف الشديد وحزنها على ابنتها رغم حالتها البائسة.

"أموت بالرقّة عند ناسي، كيف أبعد عن هاشم وبشير وقبر أبو هاشم؟"[26] "ذات مرة كنا نجلس ننتظره (بشير) بقلق، وكان قد مرّ عليه يومين لم يأت. اتصل وكلم عمتي التي سألته: تنام بالشعبة، بالفرع، بالفرقة، أين تنام؟ الله يحرسك يا ابني، والله أريدك بجانبي!"[27]. قدم لنا الروائي مدى اهتمامها بأولادها، في حب وحنان وودّ.

2- صورة الأب:

الأب روح الحياة وهو النور الذي يضيء حياة أطفاله، ويعرّف أولاده واجباتهم والتزاماتهم، ويخاف عليهم من أمور الدنيا من مرض أو تعب، أو أن يصيبهم أي أذى، كما جاء في القرآن الحكيم إذ خشي يعقوب – عليه السلام – على ابنه يوسف – عليه السلام – من أذى إخوته، وأن يحسدوه على ما رزقه الله من فضله، إذ قال له: (يَا بُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيْدُوا لَكَ كَيْدًا)[28]. فأمره يعقوب عليه السلام أن لا يقصّ رؤياه على إخوته؛ خوفاً وعطفاً عليه، ورحمةً به، لكيلا يصيبه ضرر منهم.

أشار الروائي في هذه الرواية إلى حب الوالد لابنته، وأهميتها في البيت قائلا: "كان يغدق عليك – يا مريم – حباً يجعلك أميرة البيت كله. كل طلباتك مستجابة. لا يغادر صباحا إلى عمله من دون عناق منك. وحين يعود والدك تتحرّك يداك ترفرفان مثل جناحَي العصفور. ضاحكة مرحّبة ثم تتعلّقين به"[29].

إن قرة عين الأب ابنته، وهي أحب مخلوق لديه، ومصدر سعادته وأمنيته، ولكن سارة تزوجت خارج طائفتها، فغضب أبوها عليها، ولم تستطع بعدها العودة إلى أهلها الذين عدّوها في عداد الأموات، وقال: "أنا غير موافق، لكنها حياتها! ... نعم إنّ الشاب من غير الطائفة، أنا غاضب وسأقاطعها، لكن ماذا أفعل؟ هي حرّة في خيارها. وهل من عاداتنا أن نجبر بناتنا؟ ثم إني أثق بها!"[30]. لكن عندما سمع أبوها أحوال الرقّة رقّ لحال ابنته، وانبعث حبه لها من جديد، فاتصل بها، وقال لها: "سارة بنتي.. أنا أبوك! لو جئت مع بنتك لعندنا في محردة، يا بنتي! هاتي بنتك وتعالي"[31].

تقول عمتي ليلى: "والدك عندما شاهد سقوط الرقة، وسمع بأخبارك بكى بشدة، وقال: حسرة، يا بنتي! حظّك مثل حظّي. حياتك تعيسة"[32].

فهذه النصوص تشير إلى حب الأب وعطفه وحنانه لابنته، وأنه لا يستطيع أن يرى حزناً في عينيها، ولا ظلماً واقعاً عليها، ويتمنى لها دائما حياة سعيدة.

3- المرأة الصديقة:

تشير الرواية إلى علاقة الناس فيما بينهم من المحبة والاحترام، كانت سارة ورنا صديقتين من الإعدادية إلى الجامعة، تذهبان معا إلى الجامعة وإلى النزهات. كانت رنا جريئة تحب المغامرات، سافرت بعد إكمالها الدراسة إلى فرنسا، أما سارة فتزوجت، وذهبت إلى الرقّة مع زوجها، وانقطعت العلاقة بينهما، بعد عشر سنوات رجعت سارة إلى محَرْدة؛ بسبب الأحداث المؤلمة، وحاولت الاتصال بصديقتها، وأخيرا نجحت، وعندما اتصلت بها، قصت عليها كل ما حدث لها وحدث في سوريا، فأشارت عليها صديقتها (رنا) بالهجرة؛ لأنها تؤثر عليها، وهي ستعيش حياتها مرة ثانية[33]. وقد رسم الكاتب هذه الفكرة هكذا: "دار بيننا حديث طويل، تقصّت فيه أخباري، وتحدثنا عن ذكريات الحافلة والجامعة والمشاوير. وبعد الحديث عن الجحيم الذي يجتاحنا في سوريا، قالت: أنا أنصحك بالهجرة يا سارة! الهجرة تجعلك تجددين حياتك من جديد!" [34].

حاولت رنا أن تساعد صديقتها سارة على الهجرة النظامية إلى فرنسا، لكنّها لم تنجح، فنصحتها بتقديم طلبات لجوء إلى بلاد أروبا، وهي تقول لها: "تحيّاتي سارة، سألت كل من له صلة بطرق الهجرة، وتأكدت أن الهجرة النظامية إلى فرنسا مستحيلة، ولا أنصحك بالتعامل مع المهرّبين، ولكن

اللجوء سهل. عليك أن تحاولي وتتقدّمي بطلبات لجوء إلى الدول الأوروبية وإلى كندا وأستراليا"[35]. فهذا المقطع يشير إلى إخلاصها وصدقها واهتمامها بصديقتها.

بعد اقتراح رنا، فكرت سارة في الهجرة، ولكنها وجدت أن الهجرة النظامية إلى فرنسا مستحيلة فقدمت طلبات اللجوء إلى الدول الأوروبية لكنها ما ردوا عليها، فأخذت القرار مع مهرّبي البشر، وأخبرت صديقتها، التي منعتها عن هذه المغامرة، وحذرتها من المهرّبين، قائلةً: "يا سارة، هؤلاء لصوص، احترفوا النصب في هذا المجال، ولديهم ألف طريق لسلبك ونهبك. قد يقبض عليك خفر السواحل... إذا قبضوا عليك يشتمونك ويضربونك، يعاملونك كما يعاملون المجرمين أو الحيوانات، وتصوّرك وسائل الإعلام، كأنك متسوّلة أو مجرمة! ثم يرحّلونك"[36]. ويشير هذا النص إلى سلوكها ومعاملتها الحسنة وصدقها ووفائها ومساعدتها لصديقتها.

4- اضطهاد المرأة:

تخلّف الحرب وراءها آثارا نفسية واجتماعية مدمرة، وتغير مجرى حياة كثير من الأسر، وتترك وراءها عددا من الآثار السلبية على الأسرة والمرأة والطفل. والحرب إحدى الظواهر السيئة التي ازدادت نسبتها في كثير من المجتمعات، ونتيجة لهذه الأوضاع عانت المرأة والأطفال في سوريا من شتى أنواع الحرمان، وتعرضوا في حالات كثيرة إلى العنف الجسدي والنفسي. وكانت المرأة أكثر الفئات تأثرا وتضررا بنتائج الحرب؛ لأنها عانت من تشتت إقامتها وتشتت أسرتها، وفقدان أو نزوح أو تهجير أولادها وزوجها وأهلها، وفقدان السند والأمان والضمان والكفالة الاجتماعية التي كانت تعوضها عما تخسره من نتائج جهودها في العمل والزراعة والأعمال التقليدية.

في يوم من الأيام اقتحم مسلحون بأسلحة متنوعة بيت هاشم، وهم يكبّرون ويصرخون ويطلقون النار إلى الأعلى وعلى البيت، وفي عيونهم حقدٌ وبحث عن الانتقام. تصرخ أم هاشم وتسألهم عن سبب دخول بيتها، فاعتدوا عليها وعلى زوجة هاشم بالضرب والركل واللطم، حتى ضربوا أم هاشم على رأسها بعقب البندقية، فنزف الدم من رأسها وفمها. وقد رسم الكاتب هذه الصورة في الفقرة التالية على لسان بطلة الرواية:

"رشقات الرصاص تداخلت. ضربات ورفسات تتسابق على عمتي خديجة. أحتضنك يا مريم وأبكي بلوعة لم أحسّ بها، حتى عندما فقدت أمي. أراهم يتوجّهون نحوي فأنطوي عليك. أقدامهم أحذيتهم تلطّخت بلعابنا ودمائنا..... صفعني على وجهي. شاهدت شهباً ناريةً لامعةً مثل البرق. ومن جديد لطمة على فمي.... والعجوز تتلوى وتستغيث وتتوسّل. تريد هاشم. يدفعونها بأرجلهم. وبضربة بالبارودة على رأسها من رجل ملثّم همدت العجوز تئنّ. بدا لي أنها غابت عن الوعي، أو ربما ماتت"[37].

وفي مشهد آخر، خرجت سارة لشراء الخبز يوم الجمعة ولكن بدأت المظاهرات، وتحرّك الناس كالسيل العارم، ودويّ التظاهرات يزداد بسرعة، من زاوية إلى زاوية، ومن بناية إلى بناية، والأصوات ترتفع وتنطلق، رشقات من الرصاص، ثم فجأة يأتي مسلّحون يشعلون النار في كل شيء، ويطلقون الرصاص، ويحاولون أن يبددوا التظاهرة، ورجال عسكريون يفتشون ويبحثون عن المتظاهرين، أحد رجال العسكر اقترب منها، وأدرك أنها ليست من المتظاهرين، ولكنه ضربها وشتمها واعتدى عليها بالضرب، يقول الروائي على لسان الساردة: "رفسة على كتفي. أخرى على وجهي. سائل دافئ بطعم جديد في فمي"[38].

وفي المقطع الآخر تقول: "لطمة على وجهي ثم رفسة قطعت أنفاسي، وسختني يا كلبة. لطمة أخرى قوية بين فخذي، ظننت أن العظم تحت الجلد الرقيق انكسر"[39].

وتوجد أمثلة كثيرة في الرواية التي تشير إلى المعاناة والآلام والأضرار الجسدية والنفسية التي واجهت المرأة في هذه الحقبة التاريخية بسبب الحرب والصراعات. وكذلك تشير إلى اضطهاد المرأة واحتقارها والاعتداء على كرامتها، والضغط عليها. فالحرب أثرت على جسمها وروحها بشكل مباشر مستمر.

5- أثر الحرب على الأطفال:

يعيش الأطفال أجواء الخوف والقلق والذعر والهلع؛ بسبب الحرب وانعدام الأمن، ويؤثر الجو الأسري المشحون بالاضطراب والقلق سلباً على حياتهم.

وفي أزمة سوريا قتلت الميليشياتُ التابعة للحكومة كثيرا من عامة الشعب؛ بحجة موالاتهم للمعارضة، وكذلك قتلوا والد مريم وأعمامها وأمها، وهذه الحادثة أثرت على نفسيتها، فصارت تصرخ وتنظر وراءها، وتركض مرعوبة، لا تتكلّم، فتقول: "مريم مريم، الحقوها، لا تصدمها سيارة...نظرتُ باتجاه الناس فإذا بفتاة بائسة حافية، ترتدي ثوبا متشقّقا قصيرا عليها، وعلى وجهها تراب الشقاء. تركض بجانب الإسفلت! يتراكض وراءها أطفال، وينادون: هربت مريم مقطوعة، هربت"[40].

بعد غياب هاشم ووفاة عمّتها؛ اتخذت سارة القرار بالذهاب إلى بلدتها (مَحَرْدة)، وفي الطريق من الرقّة إلى محردة، عندما اقتربوا من ضواحي (إسِرْيَة) وجدوا حاجزاً ضخماً، وعناصر ينتشرون بتأهّب، يصوّبون بنادقهم نحوهم، وعسكري يدخل رأسه في نافذة السيارة، ويمطر بسيل من الأسئلة، ويفتّش السيارة، وهذا المشهد أثر على مريم التي تذكّرت مأساة ذلك اليوم، عندما اقتحم المسلّحون بيتها، واعتقلوا أباها، يقول الكاتب على لسان سارة: "انفجرت – يا مريم – بالبكاء والتصقت بي أكثر. ترتجفين خائفة حين شاهدت الأسلحة والعناصر، وكأنك تذكرت مأساة والدك"[41].

كان وضع مريم يتدهور أحيانا، فتستيقظ في الليالي بصرخات مدويّة، وترتعش وتتشنج شاخصة ببصرها، كأنها في غيبوبة، وأحيانا تصرخ وتشير بيدها حيث كانت آثار الدماء. فالفوضى في البلد وفقدان الأمن أثر على مريم، والخوف والرعب استقر في دمها، وتدهورت صحتها، فذهبت بها أمها إلى الطبيب النفسي، تقول: "لم يتحسّن وضعك كثيرا يا مريم، ولما كلّمت عمّي جورج اقترح عليّ أن أذهب إلى الطبيب عُمران لطفي في حماة، لأجري لك تخطيطا للدماغ وتحليلات"[42].

أثرت كارثة الرقّة على مريم وازداد ضعفها، والطبيب لم يستطع تحديد العلة، وأكد لها أن علاجها يحتاج إلى مخابر متطورة لتشخيص الحالة، فتعبت أمها من صحتها وصرخاتها المفاجئة وشحوبها، وأشارت إلى حالتها قائلة: "تعبت مع والدي، وزاد من تعبي وضعك، يا مريم، كنت حين تسمعين أصوات القذائف تضطربين، ويتلوّن وجهك، وتتلفّتين مرعوبة، وحين تسمعين انفجارا قويا تصرخين وتتجمّدين لحظات، وعيناك شاخصتان في الفراغ. تنكمشين وتلوذين بي"[43]. يشير هذا النص إلى أثر الحرب وأضرارها على الأطفال، مثل: الخوف من الموت، والقلق الشديد، والاكتئاب والذكريات المؤلمة، واضطرابات النوم، والأحلام المزعجة، والضغط النفسي.

6- الأثر النفسي للحرب على الناس:

تترك الحرب آثارا نفسية واجتماعية خطيرة على الناس، فقد يعاني العديد منهم من القلق والاكتئاب والصدمة النفسية؛ بسبب الأحداث القاسية والخسائر المأساوية التي شاهدوها، مما يؤثر بشكل كبير على صحتهم النفسية واستقرارهم العاطفي. وانعكاسات الحروب مختلفة ومتعددة، تشمل جوانب الحياة الاجتماعية والاقتصادية والثقافية والنفسية، وأن ما ينتج عنها من حالات القلق والأنفعال وتغير المزاج النفسي، هي بلا شك آثار تترك انعكاسات خطيرة في شخصيات الأفراد، وتختلف حدتها وتأثيرها باختلاف البناء النفسي لهم.[44] وتترك الحرب آثارا سيئة على الناس، مثل: ظهور الأمراض النفسية والحالات الهستيرية والقلق الدائم والتوتر، إضافة إلى وجود حالات الاعتداء ورؤية الكوابيس والأحلام المزعجة، وحالات أذى النفس والكآبة والانفصام وأحلام اليقظة. كما نرى سارة التي يئست من وضع ابنتها، ومن الكوابيس وأصوات القذائف والانفجارات، ومن المحاولات الفاشلة للهجرة مع اللاجئين، فاتخذت القرار النهائي بهجرتها مع المهرّبين، وأخبرت صديقتها رنا بقرارها، فمنعتها رنا، ونبهتها إلى خطورة هذا القرار، إذ ليست لها قدرة على التعامل معهم، ولديهم ألف طريق لسلبها ونهبها، وهم يعاملون الآخرين مثل المجرمين أو الحيوانات، لكن سارة لم تعد لتخاف من أي شيء، قائلة: "هل جرّبت العيش في ذلك السجن الذي اسمه الخوف، ومعك طفلتك المريضة، ولا تعرفين شيئا عن مصير زوجك؟"[45]. فهذا المقطع يشير إلى حالتها النفسية والقلق والاضطراب والاكتئاب الذي تعيشه، حتى

صارت لا تهتم لمخاطر الطريق وظروفه الصعبة، واتخذت القرار بالرحيل عن سوريا، مهما واجهت من الصعوبات. ففقدان الأهل ترك جروحا نفسية عميقة عليها، وهي تحاول أن تهرب من القلق والتوتر والكوابيس.

الصراع مرتبط بالإنسان في جميع أحواله، وهو يتصارع دائما بين رغبتين أو هدفين، والصراع النفسي يحدث حيث لا تستطيع الشخصية تحقيق أهدافها وغاياتها[46]. وقد ظهرت أشكال عديدة للصراع النفسي في رواية "نزوح مريم". إذ بلغ التشاؤم والخوف فيها إلى درجةٍ لم تكن تجد حلاً له إلا في الهجرة، تقول: "تتكاثر الخيالات والإحباطات، وتتنامى أوجاعي مثل مرض خطير. أحسّ أن كل شيء يقول لي: هاجري! صرت لا أفكّر إلا في اليوم الذي أصل فيه إلى رنا، وأرتاح من أصوات القذائف والانفجارات، وأنام بلا خوف ولا كوابيس. هل يتحقّق حلمي؟"[47].

أشارت سارة إلى القسوة والقوانين الصارمة التي مورست على أهل البلد، حتى كل وجه بنكبته يبوح، تقول سارة: "يرعبون الناس، يمارسون أقصى القسوة، ويطبّقون قوانين صارمة على الجميع، هل كانوا يدركون أنهم حوّلوا البشر إلى قطيع بائس؟ ينهض الناس إلى أعمالهم صباحا، يتلصّصون خائفين، مثل قطعان خرجت من عفونة راكدة إلى الفلاحة!"[48]. وهذا النص يشير إلى أثر الصراعات المسلحة من القلق والاضطراب والخوف والمعاناة والضغوط على الناس.

7- أثر الحرب على التعليم:

لا يقتصر تأثير الحروب على سفك الدماء وتدمير المباني بل يمتد إلى كل جوانب الحياة والمجتمع، وتؤثر بشكل كبير على النظام التعليمي، حيث تحل كعواصف عاتية، تهدد بجرف أسس التعليم والعلم، وتهدد المباني التعليمية من الجامعات والمدارس حتى رياض الأطفال، فتدمر مستقبل الجيل القادم، وكذلك تؤثر على النمط العقلي والنفسي للطلاب بشكل كبير، وتترك آثار الخوف والقلق والضغط النفسي عليهم مدى العمر.

فصور القتلى وكوابيس التظاهرات والأحداث والمجازر تشلّ الحركة في النهار وحتى في الليل، ورياح الشر تتمدّد في سماء الرّقة، وبسبب أوضاع الخوف السائدة لا يخرج الناس من بيوتهم، حتى قلّ عدد الطلاب في المدارس. ورسم الروائي تلك الصورة على لسان سارة حين تقول: "أذهب إلى مدرستي مع أنني لا أجد فيها إلا بعض الطالبات اللواتي يسكنّ بمحاذاة المدرسة، وعددا من المعلمات لا يتجاوز عدد الأصابع. الخوف يعطّل العقل. كيف نعلّم؟ الغرف جامدة كئيبة كأنها مدافن. ينتابني القلق ويربكني الأفق الغامض لما يحدث!"[49].

تتزايد المظاهرات المسلحة المفاجئة كل يوم، وقد دمّرت البراميل المتفجرة والصواريخ نصف بيوت الرقّة، ونهبوا كل الأموال والمراكز الحكومية، وتغير فضاء الرقّة تماما، حتى كدّسوا الأسلحة في المدارس كأنها مخازن الأسلحة، يقول الكاتب: "حوّلوا المدارس إلى مخازن أسلحة"[50].

انتشر الخوف والرعب في الرقّة، وغلب السواد على الشوارع والمحلات والأبنية والهواء والريف والمدينة والحجر والنهر، وتغيرت الحياة كلها، كما أشار إلى ذلك الكاتب: "أقفلت المدارس وتغيّرت الحياة. ينطوي الناس في الرقّة على أنفسهم، بعد ما كانوا منبسطين منفتحين. أصبحت الرّقّة مرعبة قاحلة مجدبة، تهجس بمخاوفها الليلية، وقد وقعت فريسة لمخلوقات جديدة! تذوي وتموت الأزهار فيها"[51].

تغيرت الأحوال، ومع الأيام بدأت تزرع عادات جديدة، وتصرفاتهم ونظراتهم وحركاتهم تثير المخاوف والدهشة، فضاقت الحياة في الرّقّة، هم يتكاثرون ويتوزعون في مراكز الدولة، يقمعون ويقتلون، ويسرقون صوامع الحبوب، وليس لأهل الرّقّة إلا الصبر أو الهرب، يقول الروائي: "نهبوا كل المراكز الحكومية. حتى الآثار سرقوها، حليب الأطفال ما له أثر بكل المحلاّت، الخبز صار حسرة. يصبغون يد الواحد. كأنه مجرم"[52]. "شعر الجميع أن ما حدث وما تغيّر كبير، كبير جدا! أكبر مما يتصوّرون. ومع الأيام بدأت تُزرع عادات جديدة! كثرت المطاعم والسيارات المتنوعة بألف موديل وموديل، لباس أسود أو مموّه قصير غريب على أهل المدينة ومحيطها"[53].

ساد شعور لدى أهل الرّقّة بأن الحكام الجدد سيغيرون كل شيء في المدينة. سلطتهم قد محت من الوجود أمكنة الدولة المعهودة، وغيّرت الأسماء والمفاهيم، وقلبت المعايير، وكادت تغيّر حتى لون الشجر الأخضر. ويطبّقون فهمهم الخاص، ومن هرب نجا، ومن قاوم قُتل وفجّروه بمركزه، أو أخذوه وقطعوا عنقه، أو أخفوه. الأرض ارتوت بالدماء، تتوالى الجثث في موكب دموي فظيع يفوق الخيال، تحوّلت ساحة لذبح البشر وقطع الرؤوس، حتى تصبّغت الأرض وتغيّر لونها، فتقول: "في ظل العهد الجديد تغيّر كل شيء يا مريم، حتى مفهوم الوجاهة تبدّل، لم يميّز الحكام الجدد بين القوم. خلطوا عباس بدرباس، فهاجر الأعيان والأطباء والمحامون!... حين سيطروا أدهشوا الناس بأفعالهم. يتحرّكون بأوامر خفيّة، يربط بينهم حبل سرّي. يتغذّى بالقتل والدم والتكبير!"[54].

هرب الكثير من عائلات الرّقّة، وبدأ الشباب يختفون، ولا أحد يعرف أين يذهبون، تتأوه الحياة في النفوس، ثم تختنق وتذوي وتذبل، لتموت بأنينها المكتوم، طارد السواد وحاصر الرقة. وأصبح الواقع سيئاً، يفكر الناس بالخروج من جحيم الظلم والذل والخوف، فتقول: "في الليل وراء الجدران يحلم الناس باستعادة الحياة. يحاولون الغرق في بهجة افتقدوها. تتحرّك الشهوات، وتعود مباهج الحياة مطمحا

إنسانيا مشروعا. تثرّ مغرية جارحة متفجّرة وراغبة في أن تفعل وتتفاعل. كل شيء في الرّقّة يحلم أن يستعيد الحياة، ويحاول أن يصنعها في الظلام بسرّيّة مطلقة"[55].

تملّك الرعب والخوف سارة، فقدت زوجها وماتت عمّتها، وتركت بيتها في الرقّة، وعادت إلى محرْدة، لكن الخوف والرعب استقر في ذهنها، بل جرى مع الدم في جسدها، وهي تشعر كأنهم يبحثون عنها في كل مكان وفي أيديهم السيوف يلوّحون بها ويريدون قتلها. الشعور القاتل والقلق يسيطران عليها، وينخران خوفها منهم كالدّاء في جسدها، وتحس بشيء يخنقها، هي تخشى أنها لا تقاوم ريح السموم، فتحلم أن تهرب من هذا الجحيم. فتقول: "الرعب الذي عشته في الرقّة عشّش واستقرّ في دمي، وأخذ يفرّخ هنا في محرْدة. أعيش أحيانا كوابيس فظيعة. أشاهد رجالا ملثّمين يطاردونني في الظلام، أركض في الظلام، ولا أعرف كيف أسير؟ وإلى أين؟ أخاف من صوت خطاهم، شهيق أنفاسهم خلفي. فوق رأسي... أختبئ في زاوية جدار... إنهم يبحثون عني، وفي أيدهم سكاكين وبنادق. أحاول أن أكتم أنفاسي لأنجو"[56].

8- معاناة اللاجئين والنازحين:

اللاجئ: من "لجأ إلى شيء، والمكان يلجأ لجأ ولجوءا، ويقال: ألجأت فلانا إلى الشيء، إذا حصنته في ملجأ، وألجأه إلى الشيء: اضطره إليه"[57]. واللاجئ: "الذي هرب من بلاده لأمر سياسي أو غيره، ولجأ إلى بلاد سواها"[58]، أو هو: "كل شخص أرغم على مغادرة موطنه الأصلي؛ بحثا عن ملاذ في مكان آخر خارج وطنه المنشأ أو الأصل، وذلك نتيجة عدوان خارجي، أو احتلال، أو غزو أجنبي، أو أحداث خطرة تهدد السلامة العامة في جزء من وطنه أو كله"[59].

إن الصراع الداخلي في سوريا أدى إلى قتل الآلاف وتشريد مئات الآلاف من هذا الشعب الذي حاول الهرب من البراميل المتفجرة والصواريخ، من مدينة إلى أخرى، ومن قرية إلى أخرى، إلى أن ضاق به العيش في بلاده، فاختار الذهاب إلى دول الإقليم المجاورة كالأردن وتركيا.

إن الحروب والنزاعات المسلحة خلفت وراءها العديد من القضايا والتحديات، ومن أبرزها قضية اللاجئين والنازحين؛ الذين يعدون من أكثر الفئات المحرومة في العالم، ويواجهون تحديات كبيرة في الحصول على الحاجات الأساسية للحياة، كما أشار إلى ذلك الروائي، في بيروت واجه اللاجئون صعوبات كثيرة، فرموهم في بيت مظلم مهجور، كأنهم في معتقل، وشدة البرد ينخر عظامهم ويخدّر الأطراف، وهم يشعرون بالخوف والجوع والعطش، فأدركوا أنهم في ورطة. تقول سارة: "لا أستطيع النوم أو الأكل إلا مكرَهة، وكنت يا مريم تبكين وتتذمرين، وازداد وضعك الصحي سوءً. أما الأكل فكان

مثل عقوبة. حين نفتح المعلبات نتعذب، وكأننا في معسكر. لم يكن عندنا الأدوات اللازمة للمائدة. الوضع يجعل النفوس تأبى الأكل، وتمرّ ساعات نبقى جائعين"[60].

عندما وصل اللاجئون إلى إسطنبول وزّعوهم في بيت كبير، ثم من هنا أخذوهم إلى أزمير، ومنعوهم أن يأخذوا معهم سوى لباسهم، وعاملوهم بخشونة، وأوصلوهم إلى مكان صغير، يتفوق عليه بالبرودة والقرف، كان الجوّ باردا والمكان مزدحما، وبرد أزمير يجمّد ماء السماء والطبيعة، وتتحجّر أرواح الناس وقلوبهم، تقول سارة: "كنّا كأنّنا حيوانات مربوطة بحبل واحد، واهنة بليدة بطيئة الحركة، ولا تكترث بمن حولها. اللغة والرطانة والوجوه، برودة الجو، كل ذلك أربكني. نساق كالسبايا والأسرى رجالا ونساء، ممنوع أن نعترض"[61].

جمعوهم على شاطئ البحر بقسوة، وساقوهم كالحيوانات، وأعطوهم بعض التوجيهات والتعليمات، والذي يخالف التعليمات سيرمونه في الماء. تقول الساردة: "يتحرّكون بيننا، يتجاهلون استفساراتنا، أو يردّون بقسوة، ويطلقون صيحات تهديد عصبية منفعلة. انطلق القارب الأول، ظلوا مترقّبين، ويتحدّثون حولنا كأنهم يتواصلون معه"[62]. هذه النصوص تشير إلى أزمة اللاجئين والنازحين ومصاعبهم من سوء التغذية، وغياب الرعاية الصحية، وفقدان الإقامة، وتشير إلى عدم حصولهم على أساسيات الحياة.

9- الحنين إلى الوطن:

"الحنين: الشوق وشدة البكاء والطرب، أو صوت الطرب عن حزن أو فرح"[63]. وقال ابن منظور: "الشوق وتوقان النفس، والمعنيان متقاربان"[64]. ويقال: "حنّ إليه يحنّ – بالكسر – حنيناً فهو حانٌّ"[65]. عرّف عطوات الحنين: الشوق وتوقان النفس مع الطرب والتنغيم، وهو يكشف عن مدى معاناة الإنسان في ديار الغربة بعيداً عن وطنه، فالحنين يرضي شغف النفس، ويشبع حب الناس للأوطان"[66].

الوطن رمز هوية الإنسان وتاريخه وفخره وكرامته، وتوجد فيه حقوقه من العيش الكريم والاستقرار والأمن، وحرية ممارسة شعائره الدينية، والغذاء والعلاج، وفيه أهله وأحباؤه وأصدقائه وذكرياته، فالوطن يحتل مكانة كبيرة في جميع القلوب. كما يقول إبراهيم الإبياري: "إن الإنسان منذ عرف الوجود، وعرفه الوجود، كان موصولا ببيئته، لا فكاك له منها. وكادت الصلة بينه وبين بيئته أن تكون أو تعد من الصلة بينه وبين أسرته، أو قريبة منها، وهو كما ينسب إلى أسرته ينسب إلى بيئته، حيث إنه ينمو في أسرته مرتبطا بأفراد، وينمو في بيئته مرتبطا بأعداد"[67].

هاجرت سارة من الرّقّة إلى محَرْدة، لكنها ما باعت بيتها، وعندما هاجرت من محَرْدة سلّمت مفاتيح بيتها إلى عمّتها، تحسب أنها ستعود إلى بيتها وإلى وطنها، فتقول: "يا مريم، نحن في سوريا لا نبيع البيوت عندما نهاجر. نتركها للذاكرة وللحنين، ونحتفظ بصورتها. قد تموت بعدنا، وقد تحيا بعودتنا إليها. كنت أحسّ كأيّ مهاجر أننا سنعود إلى وطننا"[68]. فهذا المقطع يشير إلى مشاعرها وأحاسيسها وعواطفها وحبها تجاه الوطن، فروحها تحنّ إلى وطنها مهما ابتعدت عنه، وهي تحلم بالعودة إلى وطنها.

بعد حادثة مؤلمة وصلت سارة إلى مخيمات اللاجئين السوريين، وشعرت ندما وحزنا على ترك الوطن، فتقول: "الغربة لئيمة، حتى لو كانت ليّنة وناعمة. أشعر حين رأيت خيم اللاجئين السوريين أني تطهّرت، وأن المسيح يجرّني من يدي إلى الملكوت بخطى واثقة. أحسّ بمحبّة عميقة"[69]. بعد زواجها سافرت إلى الرقّة، وبعد عشر سنوات عندما عادت إلى محَرْدة ورأتها، هطلت الدموع من عينيها، وكانت تشعر كأنها كانت أسيرة، وكررت بشوقٍ وحبٍّ: حماة! إنها حماة!. فتقول: "وحين شاهدت المدينة من بعيد أخذتني الصدمة! كأني كنت أسيرة، ولم أزرها منذ سنوات، كررت بلهفة: حماة. إنها حماة"[70]. إن الوطن ليس فقط الشوارع والمباني والمقاهي والمراكز التجارية، وإنما أنموذج للحب والتعاون والخير والعطاء والأهل والأصدقاء، وذكريات الطفولة ومحبة الكبار، وروائح الزهور والأشجار وتغريد العصافير، ويحب الإنسان ترابه وشمسه، وماءه وجباله، ويشتاق ويحن إليه.

الخاتمة والنتائج:

إن الرواية مرتبطة بالمجتمع، وتقوم بسرد الأحداث بشكل متسلسل الأفكار، تعبر عن الفرد أو الجماعة أو من الظواهر. ورواية "نزوح مريم" لمحمود حسن الجاسم تميّزت من ناحية الشكل، والموضوع، والأسلوب، فهي رواية بليغة في نقلها لتجربة الموت عند السوريين، فالحروب والصراعات الداخلية خلّفت وراءها العديد من القضايا والتحديات، ولم ينحصر تأثيرها على الأبدان والحياة، بل امتد إلى الكيانات والثقافة والتعليم. فقد نجح كاتب الرواية في بلورة أزمة الإنسان السوري في حقبة الحرب الأهلية، وبعد دراسة هذه الرواية تتلخص نتائجها في الآتي:

- أشار الروائي إلى حالة من الفوضى والتشتّت والتيه، ومن الكآبة والاكتئاب والحزن ومشاكل التهجير وذلّ النزوح، والتطورات السيئة في سوريا.
- أشار إلى اللاجئين والمهجرين والنازحين والمطرودين من ديارهم ووطنهم، إذ اضطرت الحرب عددا كبيرا من السكان إلى مغادرة منازلهم، والنزوح عنها والرحيل عن وطنهم.
- إن الحرب أثرت على الأوضاع الإنسانية والوضع الأمني في سوريا.

- أثرت الحرب على النظام التعليمي بشكل كبير، وهددت بجرف أسس التعليم والعلم. وأشار إلى استخدام المدارس كمنشآت عسكرية أثناء الحرب.
- تركت الأحداث القاسية آثارا نفسية خطيرة على الناس، واستقرارهم العاطفي.
- عانى السوريون من الأطفال والنساء والشباب من نقص في رعاية االصحيّة.
- واجه اللاجئون تحديات كبيرة في الحصول على الحاجات الأساسية من الأمن والاستقرار والطعام والمياه ومن المستشفيات والمدارس.

.....

الهوامش

[1] – عبد الرحمن بو علي، الرواية العربية الجديدة، منشورات كلية الأداب والعلوم الإنسانية، وجدة، المغرب، 2001م، ص17.

[2] -https://www.m-a-arabia.com/vb/showthread.php?t=19361 -11 – 18 . 2023pm. الوقت: 11:45

[3] – إبراهيم مصطفى وآخرون، المعجم الوسيط، ج1 ، المكتبة الإسلامية للطباعة والنشر والتوزيع، اسطنبول، دت، ص 384.

[4] – ابن منظور، لسان العرب، دار صادر للنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط/3، 2005م، ص 280.

[5] – عبد الملك مرتاض، في نظرية الرواية في تقنيات السرد، عالم المعرفة، الكويت، 1998م، ص 3.

[6] – إبراهيم فتحي، معجم المصطلحات الأدبية، المؤسسة العربية للناشرين المتحدين، التعاضدية العمالية – صفاقس – تونس، 1986

[7] – عبد المالك مرتاض، في نظرية الرواية، ص 25.

[8] – عزيزة مريدن، القصة والرواية، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1971م، ص20.

[9] – عبد الله العربي، الأيدولوجيا العربية المعاصرة، تر: محمد عثمان، دار الحقيقة، بيروت، 1970م، ص31.

[10] – أحمد أبو السعد، فن القصة، ج 1، منشورات دار الشرق الجديدة، 1959م، ص25.

[11] – عبد المجيد الحسيب، الرواية العربية الجديدة وإشكالية اللغة، عالم الكتب الحديث للنشر والتوزيع، الأردن، ط/1، 2014م، ص17.

[12] – خلاف بطرس، نشأة الرواية العربية بين النقد والأيديولوجية، الرواية العربية واقع وآفاق أعمال ملتقى الرواية العربية الحديثة بالمغرب، دار ابن رشد للطباعة والنشر، بيروت، ط/1، 1981م، ص17.

[13] – فاروق خورشيد، في الرواية العربية عصر التجميع، الناشر مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، 1998م، ص 75.

[14] – عبد المجيد الحسيب، الرواية العربية الجديدة وإشكالية اللغة، ص 31 –32.

[15] – محمود حسن الجاسم، نزوح مريم، (رواية) دار التنوير للطباعة والنشر، لبنان، ط/1، 2015م، ص 236 – 237.

[16] – المصدر السابق، ص 237.

[17] – سنن النسائي، رقم الحديث: 3104، وصححه الألباني.

[18] – صحيح مسلم، رقم الحديث: 6501.

[19] – سورة القصص – 10.

[20] – محمود حسن الجاسم، نزوح مريم، ص 61.

[21] – نزوح مريم، ص 93.

[22] – أنظر: نزوح مريم، ص 120 – 121.

[23] – المصدر السابق، ص 122.

[24] – المصدر السابق، ص 231

[25] – نزوح مريم، ص 230.

[26] – المصدر السابق، ص 106

[27] – المصدر السابق، ص 44.

[28] – سورة يوسف، الآية: 5.

[29] – المصدر السابق، ص 111.

[30] – نزوح مريم، ص 177

[31] – المصدر السابق، ص 87.

[32] – المصدر السابق، ص 192.

[33] – د. روبينة ناز، بنية الشخصية والحدث في رواية "نزوح مريم" لمحمود حسن الجاسم، المجلة: العامر، جلد، 5، العدد 2، (ابريل – يونيو) 2024م، ص 17.

[34] – نزوح مريم، ص 179.

[35] – نزوح مريم، 195.

[36] – المصدر السابق، ص 207.

[37] – نزوح مريم، ص 66- 69.

[38] – المصدر السابق، ص 34.

[39] – المصدر السابق، ص 216.

[40] – نزوح مريم، ص 149.

[41] – المصدر السابق، ص 163.

[42] – المصدر السابق، ص 189.

[43] – نزوح مريم، ص 192.

[44] – عبد الحميد صبحي، نظرات في الحرب الحديثة، المكتبة المصرية، بيروت، 1969م، ص 53.

[45] – المصدر السابق، ص 208.

[46] – د. روبينة ناز، الصراع النفسي والاجتماعي في رواية "سلامة القس" لعلي أحمد باكثير، المجلة: الميزان، جلد 4، العدد 1، 2022م، ص118.

[47] – نزوح مريم، ص 204.

[48] – المصدر السابق، ص 117.

[49] – نزوح مريم، ص 51.

[50] – المصدر السابق، ص 89.

[51] – المصدر السابق، ص 103.

[52] – المصدر السابق، ص 90.

[53] – نزوح مريم، ص 102.

[54] – المصدر السابق، ص 112 – 113.

[55] – المصدر السابق، ص 114.

[56] – نزوح مريم، ص 180.

[57] – لسان العرب، ج31، ص170.

[58] – المنجد في اللغة والأعلام، بيروت، دار المشرق، ط/28، 1960، ص 24.

[59] – د. إيليا زريق، اللاجئون الفلسطينيون والعملية السلمية، بيروت، مؤسسة الدراسة الفلسطينية، ط/1، 1997م، ص 11-13.

[60] – نزوح مريم، ص 213.

[61] – المصدر السابق، ص 220.

[62] – المصدر السابق، ص 227.

[63] – الفيروز آبادي، القاموس المحيط، ج4، دار الجيل، بيروت، ص 218.

[64] – ابن منظور، لسان العرب، ج3، دار صادر بيروت، ط/3، 2005م، ص252.

[65] – محمد بن أبي بكر عبد القادر الرازي، مختار الصحاح، دار الفكر، ط/1، 2007م، ص 80.

[66] – محمد عبد عبد الله عطوات، الاتجاهات الوطنية في الشعر الفلسطيني المعاصر، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط/2، 1998م، ص224.

[67] – إبراهيم الإبياري، الوطن في الأدب العربي، المكتبة الثقافية، دار القلم للطباعة والنشر، القاهرة، ط/1، 1962م، ص3.

[68] – نزوح مريم، ص 209.

[69] – المصدر السابق، ص 233.

[70] – المصدر السابق، ص 172.